

## الباب الثاني

### الإسلام وتنمية الشخصية عقليا ونفسيا وعضويا وسلوكيا

تمهيد : موجز عن الحرية باعتبارها أبرز الملامح  
للتنمية الشخصية

الفصل الأول : الحرية وطبيعة النشأة الإنسانية .  
الفصل الثاني : كيف تنمو الإمكانيات والقدرات ؟



## الحرية

تمهيد موجز:

الحرية في الإسلام متسعة الجنبات ، كثيرة الأبواب ، وأهم ما يعيننا منها هنا هو ما يجعل الإنسان أهلاً لتحمل تبعه أعماله ، بمعنى أن يكون حراً في اختياره لأعماله .

فالاختيار الحر إذن هو ما نعالجه الآن من واقع نصوص الوحي قرآنا وسنة .

وحدثنا عن أبرز الملامح في حرية الاختيار الإنساني ، فما ينبغي أن ننسى للحظة واحدة ، أن الحرية الإنسانية نعمة من الله منحها للإنسان كسائر النعم الكثيرة التي أنعم بها الله سبحانه على عباده وهي نعمة حق وصدق ، أعطاه الله لعباده كاملة الأركان تامة البنيان ، فمن ورائها النية والقدرة ، وبين يديها طرفا كل متاح لها ويمكن من خير وشر ، والأمر كله من نية وإمكاناتها ووسائلها في إطار الحوادث التي خلقها الله وأوجدها ، وكما لها وتماها في هذا الإطار لا يتصل من قريب أو بعيد بمزاحمة القدرة العليا أو المطلقة كما سيأتي بيانه ، تعالى الله عما يصفون .

ومن أسباب كمال القدرة الإنسانية في باب الحوادث تعدد جوانبها وتآلف أجزائها التي يمكن ملاحظتها بالنظر العابر .

ويهمنا أن نقول هنا للتذكير : إننا حين نذكر تعدد الجوانب وتآلف الأجزاء كي نعتبره كمالاً في القدرة الإنسانية ومشيئتها فلا ننسى أن التعدد والتآلف والجوانب والأجزاء أمور تنتزه عنها تماماً ذات الله وصفاته ، وإذا كانت هذه الأشياء آية كمال في الحوادث ، ودليل إبداع وجمال في نظامها ، فهي أمور محالة على الصفات القديمة فضلاً عن كونها آية نقص تبطل نهائياً نسبتها إلى الله .

ومن النظر العابر نستطيع أن نلاحظ أن من جوانب القدرة الإنسانية ما هو عضوي أو مادي ومنها ما هو عقلي أو معنوي ، وكلاهما من حيث المبدأ أمر فطري

من نعمة الله سبحانه ومن خلقه وإيجاده ، يحتاج إليه المخلوقون وينفعهم ، ولكن الله غنى عنه ولا يجوز أن يكون من أوصافه .

كما يمكن أن نلاحظ مع شيء من التأمل اليسير أن الله سبحانه وتعالى جعل التكاليف الدينية متكافئة مع مستوى القدرة الإنسانية ، بل ويتفاوت إلزامها للعباد وفق تفاوت أحجام قدراتهم ، والقاعدة القرآنية في هذا واضحة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، وإذا كان هذا التفاوت في الإلزام برهانا بين يدي عدالة الله والجزاء الحق ، فهو في نفس الوقت برهان يحكم ويقضى بحدوث الإنسان وقدرته .

وإذا كانت قدرة الإنسان حادثة بتعدد جوانبها وتآلف أجزائها وتفاوت مستوياتها وأحجامها فإن هذه الأوصاف تجعل من هذه القدرة الحادثة آية إبداع وإتقان وكمال في صنعة الله لها .

ولكن هذه القدرة مع ما فيها من أوصاف الكمال في الحوادث هي قدرة عاجزة وفقيرة لمن خلقها وأوجدها ، فصفت كمالها وتماها في الحوادث هي نفسها صفات احتياجها وفقرها لله خالقها وموجدها ، فلا تناظر البتة إذن بين القدرتين أو المشيئتين ، وهذه المخالفة التامة بين القدرتين أو المشيئتين ، وهذه المخالفة التامة بين القدرتين كافية وحدها لنسف شبهة الجبر التي تتمحك بها العقول البليدة في غباء شديد .

بيد أن شبهة الجبر داحضة من الأصل ؛ لأنها تتنافى أساسا مع الحكمة العليا لخلق الله وإبداعه سبحانه لقدرة الإنسان ثم تكليفه ومجازاته ، وسنرى أن القرآن والسنة تظاهرا في التأكيد على نفي هذه الشبهة مع إثبات المشيئة لله سبحانه ، دون أي تعارض بين هاتين الحقيقتين .

إن للإسلام منهاجا خارق الإعجاز في استيعاب جوانب هذه القضية وتجليتها للناس كافة ، ونصوص القرآن والسنة تغطي الموضوع كله تغطية كاملة بما في ذلك الشبهات المعقدة التي أثارها شطط العقل الإنساني في مختلف العصور والدهور ، ونتناول في هذا الفصل أبرز المعالم التي ذكرناها في هذا التمهيد على ضوء نصوص من السنة المؤيدة بالقرآن الكريم .

ولسوف يتبين لنا بعد استعراض النصوص التي عاجلت هذا الموضوع أن الحرية الإنسانية أو الاختيار الحر ، أو إرادة الإنسان ومشيتته ، وما يمت إلى هذه الهبات بصلة مباشرة أو غير مباشرة ، جميعها أمور أبدعها الله على أروع وأتم ما يكون الإبداع جمالا وإعجازا .

ومن هنا فهي بالضرورة فقيرة ومحتاجة إلى خالقها وموجدها من جهة ، وهي من الجهة الأخرى تستطيع بمشيئة الله أن تختار وتفعل ما تشاء ، ونصوص الوحي وحدها هي القادرة على أن تفسر لنا هذا الأمر ، تفسيراً يشرح الصدور ويقنع العقول وينير البصائر .

\*\*\*\*\*



## الفصل الأول

### الحرية وطبيعة النشأة الإنسانية

إن القول بالعقل وحده في طبيعة النشأة الإنسانية إعمال للعقل في مجال خارج عن نطاق قدرته وطاقته ، فما يزال العقل عاجزا عن التأريخ الدقيق لشتى أنواع الحضارات التي وجد الإنسان فعلا آثارها وأخضعها للدراسة والتي كانت من صنع آباءه وأجداده ، وما بضعة آلاف من السنين بالشيء الذي يذكر في عمر الحياة ، ومع ذلك فالإنسان يقف عاجزا فيما هو دونها من السنين .

ولنأخذ مثلا أهرامات القدماء المصريين وهي أثر حضارى ذو شهرة عالمية منقطعة النظر وتولى دراسته وبحثه وتحليله علماء أفذاذ من كل نوع وجنس ، وصور بأشعة « الليزر » في السنوات الأخيرة وهي من آخر ما توصل إليه العلم ، ومع ذلك كله فلا زالت أسرار الهرم الأكبر عصية على عقل الإنسان . وحتى هذه اللحظة لم يعطنا العقل حكما يقينيا عن الكيفية التي استخدمها بناء الهرم الأكبر في لصق أحجاره ، ولا زالوا يبحثون عن باقى حجراته ، حتى الوسيلة التي استخدمت في رفع أحجاره الثقيلة إلى أماكنها العالية مجرد نظريات واستنتاجات يرجحها القائلون بها .

فكيف - والحال هذه - إذا أقحم العقل الإنسانى نفسه في أعماق سحيفة من الماضى البعيد الذى صحب وجوده وخلقه ، تلك الفترة التى لم يشهدا لأنه لم يكن شيئا مذكورا ، ولقد قال الله سبحانه فى شأن بعض خلقه حين تجاوز المشركون بأقذارهم حدود البشر : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١] .

إذن فإن الذين قالوا بعقولهم وحدها فى طبيعة النشأة الإنسانية كان لا بد أن يجانبهم الصواب ، وكانت هذه المجانبة للصواب على حساب الإنسان نفسه ، حيث

مضت بهم الأفكار دون ضابط وكيفما اتفق ، فأساءوا للإنسان إساءة في أصله واستعداده وأخلاقه .

أما إساءتهم للإنسان في أصله ، فما زال الفكر الإنساني في متاهات من الباطل ، حتى وصلت به هذه المتاهات إلى الادعاء بأن الإنسان قد يرتد في أصله إلى عالم الحيوان والقردة .

وأما إساءتهم للإنسان في أخلاقه واستعداده فقد حدثت حين ضل العقل فأقحم نفسه في الكتب الساوية السابقة على القرآن ، فحجب من نصوصها أو غيرَ وبدل وأضاف ، فإذا « بالخطيئة » عند هؤلاء مغروسة في دم الإنسان منذ عهد آدم ، وأسلمهم هذا الانحراف من ضلال إلى ضلال فظلت اللعنة تلاحق ذرية آدم من فعلة لم يرتكبوها ، ثم تخلصت الإنسانية من لعنات الخطيئة بأسلوب أشد نكرا وغبابة ، حيث افتدى البشرية وخلصها غريب ليس من أبناء آدم فيما يزعمون ، وإنما هو ابن الإله نفسه ، تعالى الله عما يصفون .

وهكذا كانت خرافة الابن المصلوب التي اغتالت في طريقها مبادئ الحق والعدل والأخلاق لأنها اغتالت قبل ذلك وظيفه التفكير وجوهر العقل وتوجيه الوحي ، فكان طبيعيا أن تسقط بأصحابها في هذه الهوة السحيقة التي أفقدتهم التصور الصحيح في ثلاثة اتجاهات أساسية ، في صلة الإنسان بربه وفي صلة الإنسان بأنبيائه ، وفي صلة الإنسان بنفسه .

أفقدتهم الاعتقاد الحق في وحدانية الله سبحانه بصفة خاصة ، وفي كماله المطلق وتنزهه عن كل نقص بصفة عامة ، كما حرمتهم التصديق بنبو سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام بصفة خاصة ، ومعرفة حق الأنبياء جميعا بصفة عامة .  
وتبع ذلك أنهم فقدوا التصور الصحيح عن أنفسهم وعن الإنسان من حيث النشأة وطبيعة الكرامة والخير والمسئولية .

وهكذا كان انقطاعهم عن القرآن الكريم ، وهو آخر كتاب من كتب الوحي وهو الكتاب الذى وعد الله بحفظه من التحريف والتغيير والتبديل - سببا فى ضياع أئمن فرصة أتاحت فى معرفة العقيدة اليقينية عن الله وعن أنبيائه وخاتم كتبه وعن أنفسهم ، والأمر الأخير من هذه الأمور الثلاثة ، هو الذى يدور حوله الحديث هنا فى هذا الفصل ، ونعنى به : « بداية النشأة الإنسانية كما أنصفها الإسلام »<sup>(١)</sup> .

وأول ما ينبغى التذكير به ، هو أن الميزة التى تتوفر فى تقييدنا بالنصوص القرآنية والنبوية هى تجنب الخطأ الذى وقع فيه غير المسلمين وبعض المسلمين الذين تابعوا غيرهم حيث لم يحسنوا التفريق بين ما يستقل العقل بإدراكه وما لا يستقل ، وبناء على هذا التفريق الضرورى تكون النصوص الدينية الصحيحة هى أهم وسيلة لاكتساب المعرفة الحقة عن بداية النشأة التى لا يملك التاريخ الوضعى وثائقها ، حيث يحتاج الإنسان إلى غيره حاجة ملحة ليقص عليه كيف وجد .

ولكن إذا كانت هذه الميزة على جانب عظيم من الأهمية لتحصيل معلومات صحيحة عن النشأة الإنسانية ، فما هى طبيعة هذه المعرفة الحقة ، وما نوعية معلوماتها الصادقة ، حتى تشكل عنصرا حيويا فى موضوع المسئولية من الجانب الإنسانى الذى نعنى بدراسته ؟

لعل الفكرة التى ألمحنا إليها آنفا عن المساءة التى لحقت بالإنسان بالانتقاص فى أصله ، والطعن فى استعداده الأخلاقى ، تشير إلى جواب هذا السؤال ، ذلك أن الإنسان يبدو على غير هذا النحو من خلال النصوص الإسلامية فى القرآن والسنة ، فهما يثبتان بما لا يدع مجالا للشك أن الاستعداد الفطرى للإنسان استعداد أخلاقى ممتاز ، كما يثبتان إنسانية الإنسان منذ خلق .

(١) انظر ابن قيم الجوزية فى كتابه (مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) ج ١ ص ٣-٤٨

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

ومعنى الإنبات الأول : أن الإنسان كائن مهياً للخير بفطرته الطاهرة .

ومعنى الإنبات الثاني : أن الإنسان عريق الجذور في المسؤولية منذ نشأته ، فلم يتوسط نشوءه ارتقاء خرافى من طور القردة أو غيرها .

وهذا أدمى بالطبع كى يجعل من الإنسان كائنا مهياً للمسئولية وجديراً بها ، بدل أن نكبله - زورا وهبتانا - بالخطيئة التى تسرى فى دمه ، واللعة التى حاقت به ويجنسه ، ومذلة الاعتراف بأسراره لغير الله سبحانه ، بهدف تخليصه من آثار الأوزار بأسلوب مذر ومفتعل وغير معقول ، يتحل فيه مخطئى حق المغفرة لمخطئى مثله ، فهل بعد هذا الانحراف والفساد فى التفكير انحراف أو فساد ؟

لقد جاء الإسلام غنياً بنصوص الوحي التى تمحو عن الإنسان أمثال هذه المثالب المشينة ، وترد له وضعه واعتباره وكرامته .

فمن حيث المبدأ العام لكرامة الإنسان ومنزلته بين سائر المخلوقات والكائنات نجد قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَدِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة كما قال المفسرون :

وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال : « إن الملائكة قالت : يا ربنا أعطيت بنى آدم الدنيا ، يأكلون ويشربون ويلبسون ، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ، قال : لا أجعل صالح

ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان» (١) .

وقد ذكر الإمام ، بن كثير بعض الآثار التي تشبه هذه الحديث عن ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن عمر . وذكر أن شبيها لهذا الأثر رواه أيضا الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه « الرد على الجهمية » وذلك عند تفسيره لقول الله سبحانه : ﴿ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢] .

ونجد أيضا في مقام تكريم الإنسان قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَالرَّيْثُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ١-٤] .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ، جواب القسم ، أي لقد خلقنا جنس الإنسان في أعدل قامة ، وأحسن صورة ، مكملا بالعقل والمعرفة ومتصفا بالحياة والعلم ، والإرادة والقُدوة والسمع والبصر والكلام والتدبير والحكمة (٢) . وأوضح وأصرح في الدلالة على فضل آدم ﷺ آيات سورة البقرة ؛ فعند قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] .

قال الإمام ابن كثير : هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة .

وفي تفسير هذه الآية روى الإمام البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك ..... » إلخ (٣) .

(١) رواه الحافظ الطبراني وأخرجه عبد الرازق عن زيد بن أسلم موقوفا ، وابن عساكر عن أنس ابن مالك مرفوعا .

(٢) التقويم : التثقيف والتعديل « كتاب صفوة البيان في معاني القرآن » الشيخ حسين مخلوف .

(٣) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ورواه مسلم والنسائي وابن ماجه .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [البقرة: ٣٤] .

قال ابن كثير : وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم .

من هذه النصوص القرآنية والنبوية وتفسيرها يتضح يقينا أن الإسلام ينظر للإنسان نظرة كريمة منذ نشأته ، وهذه النظرة تتفق مع الواقع والفترة ، وهى من حيث المبدأ تشهد للإنسان بأنه خلق على درجة من الرقى والرفعة بل وتفوقت في أول إنسان على الملائكة وهم من هم منزلة ومكانة عند الله سبحانه ، ويكفى أن الله قد اصطفى من الناس أنبيائه ورسوله .

وإذا كان هذا من حيث المبدأ العام يؤهل الجنس البشرى لتحمل أرقى درجات المسؤولية ، فإنه من حيث التفصيل عن طبيعة النشأة الإنسانية وردت النصوص الكثيرة الصريحة التى تقطع بتحمل الإنسان للمسئولية على وجه دقيق ، ونختار من هذه النصوص طائفة من الآيات والأحاديث نبدأ منها بقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

قال ابن عباس : يعنى بالأمانة « الطاعة » ، وكذلك قال آخرون ، وعنه أنها : « الفرائض » وتابعه مجاهد والضحاك والحسن البصرى .

وقال قتادة : الأمانة : « الدين والفرائض والحدود » .

وقال زيد بن أسلم : هى الصلاة والصوم والاعتسال من الجنابة .

وعلى ابن كثير على هذه الآراء بقوله : وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى

متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها .

وقد أورد الشيخ مخلوف تلخيصا جيدا لاتجاهات بعض المفسرين فى الآية فقال :

« عرضنا الأمانة » : هي التكاليف والفرائض ، أو كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى ، وشأن دين أو دنيا ، وسميت أمانة لأنها حقوق أودعها الله المكلفين واثمنهم عليها ، وأوجب عليهم مراعاتها والمحافظة عليها ، وأدائها من غير إخلال بشيء منها .

ونقل القرطبي عن القفال وغيره أن العرض في الآية ضرب مثل ، أى أن هذه الأجرام على عظمتها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من العقاب والثواب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد حملة الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل وفي القرآن من ضرب الأمثال كثير .

وقيل : الآية من المجاز ، أى أنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فعبّر عن هذا بعرض الأمانة ، كما تقول : « عرضت الحمل على البعير فأباه » ، وأنت تريد : قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه <sup>(١)</sup> .

ولا يخفى أن الاتجاه الأول لا يخرج عن النقول التي أوردها الإمام ابن كثير وأضاف عليه أن يكون في الآية ضرب من التمثيل أو المجاز وسيأتي تعليقنا على ذلك بعد الفراغ من ذكر بقية النصوص إن شاء الله ومن هذه النصوص الكريمة قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ﴾ [البقرة: ٣٠] .

خليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه ، فهو فعيل بمعنى فاعل والتاء فيه للمبالغة .

(١) صفة البيان لمعاني القرآن للشيخ مخلوف .

والمراد به آدم عليه السلام؛ لأنه كان خليفة الله في الأرض وكذلك سائر الأنبياء استخلفهم الله تعالى في عمارة الأرض وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وإجراء أحكامه عليهم وتنفيذ أوامره فيهم .

وقيل آدم وذريته؛ لأنه يخلف بعضهم بعضاً في عمارة الأرض، واستغنى بذكره عن ذكر ذريته لكونه الأصل<sup>(١)</sup>. لكن هذا الرأي الذي نقله الشيخ مخلوف وجعله أصل المسألة في المراد من الخليفة لم يرتضه الإمام ابن كثير، ونفاه نفياً قاطعاً فقال: وليس المرادها هنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقول طائفة من المفسرين، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك .

ثم أورد ابن كثير عدة آراء في معنى الخلافة وفي كيفية علم الملائكة بالفساد وسفك الدماء .

وسواء كانت الخلافة التي أَرادها الله للناس عن الله سبحانه، أو هي خلافة الناس للناس قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، أو هي خلافة الناس لأوادم سبقتهم، أو - حتى - للجن كما ذكر ابن جرير عن ابن عباس .

سواء كان هذا أو ذاك فإن للخلافة ما يقتضيها من مسؤوليات الخلافة وتبعاتها، وعليه فالآية الكريمة نص صريح ومباشر في أن الجنس البشري كان أهلاً للمسئولية منذ هذه النشأة، وهذه المسئولية وحديث الله تعالى عنها للملائكة كانا ولا شك سابقين على وجود الإنسان نفسه، ولذلك قال ابن كثير:

يخبر تعالى بامتثانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم في الملائكة الأعلى قبل إيجادهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ .

(١) صفوة البيان للشيخ مخلوف .

على أن سياق القصة في سورة « الحجر » فيه خطاب للملائكة بأن خلق آدم سيكون بعد مخاطبة الله سبحانه للملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧٢] .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] .

بل هناك نصوص أخرى متخصصة في دلالتها على أن الناس جميعا يولدون طهارا أنقياء من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[الروم: ٣٠]

والفطرة : قابلية الدين الحق والتهيؤ لإدراكه وهى دين الإسلام والتوحيد ، ومعنى ﴿ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ : أن الله سبحانه خلقهم قابلين الدين الحق غير ناين عنه ، منساقين إليه إذا خلوا وأنفسهم دون أن تعترضهم الأهواء والوساوس <sup>(١)</sup> .  
ويفسر ذلك قول رسول ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » <sup>(٢)</sup> .

وبل ومن قبل مرحلة الولادة حيث يكون الإنسان بذرة في دور تطوير الجنين في الأرحام يعالج الإسلام قضية الجهد والمسئولية وكتابتها على المخلوقين ، فقد روى البخارى عن زيد بن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : أكتب عمله ووزقه وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح . فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع

(١) مخلوف في صفوة البيان .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم .

فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة» (١) .

ويخطئ خطأ بالغاً من يظن أن هذا الحديث يتعارض مع تمام أهلية الإنسان للمسئولية ، ذلك أنه مسوق للحث على العمل بمقاصد ثلاثة :

أولها : تحذير أصحاب العمل الصالح من المفاجآت التي تحبط العمل ، وهنا ينتفى تماماً خطر الغرور والكبر والنفاق والرياء ، وسائر الأمراض الباطنية التي قد تعرض مرتكبها لعقوبة الطرد وسوء الخاتمة .

ثانيها : إثارة الأمل في نفوس الذين أسرفوا على أنفسهم حين يبشرهم الرسول ﷺ بإمكان تبدل أمورهم من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، حيث تنشط عزيمتهم وتقوى إرادتهم فيتغير سلوكهم من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح في لحظة حاسمة .

ثالثها : لفت نظر الطائعين والعصاة إلى التوجه إلى الله ، فاللجوء إليه سبحانه يفضى دائماً إلى إثارة القدرات والإمكانات نحو ما يرضى الله وبعدها عما يغضبه .  
وهذه المقاصد الثلاثة تشير في الإنسان ملكة المسئولية الراشدة التي تتجه بصاحبها إلى صراط الله المستقيم .

بل وهناك نص قرآني يعود بقضية المسئولية إلى ما هو أعمق من أطوار الأجنة في بطون أمهاتها وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ .

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه ، وأخرجه مسلم ، وأبو داود والترمذي ، وابن ماجه ، كما أخرجه أحمد في عدة مواضع من مسنده .

ويقول الإمام ابن كثير : يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه . وقد اعتمد ابن كثير في تفسيره للآية على آية سورة الروم السابقة .

كما أورد أحاديث المولد على الفطرة ، ومنها ما رواه ابن جرير عن الحسن بن أبي الحسن عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال : غزوت مع ﷺ أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ » ، فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال : « إن خياركم أبناء المشركين ، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها » .

قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنْيَانِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] <sup>(١)</sup> .

ومنها ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك ؓ عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : رأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » <sup>(٢)</sup> .

### احتياط ابن كثير ودقته العلمية في الموضوع :

لقد أورد الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث والأخبار والآثار في هذا الموضوع

(١) وقد رواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى ، وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال : حدثني الأسود بن سريع فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك .

(٢) أخرجه الشيخان في الصحيحين من حديث شعبة به .

ثم لخص الموضوع في العبارة الدقيقة التالية :

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم ابن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو ، وقد بينا أنها موقوفان لا مرفوعان .

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنها هو فطرهم على التوحيد . أ.هـ ( ابن كثير ) .

وقد أثرنا إيراد هذين الحديثين الموقوفين إتماماً للفائدة :

١ - قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنشرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ » [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] .

قال ابن كثير : وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سنته - عن حسين بن محمد المروزي - به ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم ابن جبير ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير - هكذا قال : وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، وكذا رواه اسماعيل بن علية ووکیع عن ربيعة بن كلثوم عن جبیر عن أبيه به ، وكذا رواه عطار بن السائب وحبیب بن أبی ثابت وعلی بن بذیمة عن سعید بن جبیر عن ابن عباس ، وكذا رواه

العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فهذا أثبت وأكثر والله أعلم .

وقال ابن جرير - بسنده - عن ابن عباس قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو فى أذى من الماء ، وقال أيضًا : حدثنا على بن سهل بسنده عن جرير قال : « مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام ، قال : فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه ، وحل عنه عقده فإن ابنى مجلس ومستول ففعلت به الذى أمره ، فلما فرغت قلت : یرحمك الله عما يسأل ابنك من يسأله إياه ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ، قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ، قال : حدثنى ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم فى صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرًا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة » .

فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم .

٢ - قال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد ، حدثنا أحمد بن أبى طيبة عن سفیان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاک عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ، قال : أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم : ﴿ أَلَسْتُمْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ .

أحمد بن أبى طيبة هذا هو أبو محمد الجرجانى قاضى قومه كان أحد الزهاد أخرج له النسائى فى سننه ، وقال أبو حاتم الرازى يكتب حديثه ، وقال ابن عدى حدث

بأحاديث كثيرة غرائب .

وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفیان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو . وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم .

ونستطيع أن نخلص من هذه النصوص وما يماثلها بأن المسؤولية مركوزة في طبيعة الإنسانية ، وأنها محاطة بسياج من العناية والرحمة والتكريم .  
وإنه لا عبرة بأي انحراف فكري ينتقص من قدرة هذه الفطرة التي لا تقبل التغيير والتبديل .

وأن القول بغير ذلك مجاف للحقيقة والصواب ، فهكذا خلق الله فطرة الناس ولا تبديل لخلق الله .

وقفه عند هذه النصوص :

في النصوص التي سبق ذكرها تكمن قاعدة انطلاقنا إلى دعوات المسؤولية ، وما نزال نذكر من النصوص التي سبقت أمورا ثلاثة :

١ - كلمة « الأمانة » التي وردت في آية سورة الأحزاب وفسرها العلماء تفسيراً نقلياً ، بالتكاليف والفرائض ، أو الطاعة أو الدين والحدود أو الصلاة أو الصوم والطهارة .

وتفسيرا عقليا لغويا يتجه إلى ضرب المثل والمجاز .

٢ - كلمة « خليفة » في آية سورة البقرة التي قال الله فيها : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ ﴾ وما نقلناه آنفاً من آراء العلماء في معنى الخلافة ، وهل هي خلافة عن الله سبحانه أم عن الناس بعضهم لبعض ، أم عن أوادم آخرين ، أم عن الجن ؟

وما تبع ذلك من سؤال الملائكة لله سبحانه : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، وما تضمنه جواب هذا السؤال من تعليم آدم جميع الأسماء وعرضها على الملائكة وعجزهم عن معرفتها وإنباء آدم بها .

٣- الإشهاد في آية الأعراف التي قال الله سبحانه فيها : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ والآراء التي وردت في معنى الإشهاد هل هو أخذ الميثاق في عالم الذر أم هو الفطر على التوحيد ... إلخ . هذه نصوص ثلاثة دارت حولها أبحاث كثيرة ، وليس هذا السبب وحده الذى دعانا لاختيارها دون غيرها لتكون قاعدة انطلاقنا للحديث عن موهبة الاختيار الحر التي خصصنا لها الفصل الأول من هذا الباب ، بل وليس هذا السبب أصيلا - في حد ذاته - لاختيار هذه النصوص دون غيرها .

وإنما كان سبب الاختيار الأصيل أننا نرى في هذه النصوص التي تعددت حولها الآراء مفتاحا أساسيا لنعمة الحرية التي أكرم الله بها الإنسان ، وكانت له في نفس الوقت أعظم بلاء وأخطر امتحان .

وتوضيح هذا الرأى في بساطة وإيجاز أن كل التوضيحات والتفاسير النقلى منها والعقلى لهذه النصوص تدور كلها في واقع الأمر حول الحرية الإنسانية بصفة مباشرة .

١- فكلمة « الأمانة » التي فسرت بالتكاليف والفرائض ونحوهما تارة ، أو بالتمثيل تارة أخرى ، نستطيع القول باطمئنان وثقة عن هذه التفاسير : أنها تنتهى كلها بلا أدنى شك إلى « الحرية الإنسانية » ، بمعنى أن مسئولية التكاليف والفرائض والأحكام الإسلامية العامة - أيا كان المنوب عنه وسواء كان على سبيل التمثيل والمجاز أم على سبيل الحقيقة لا يتأتى تصور هذه المسئولية بطرفيها من طاعة

ومعصية إلا من كائن منح حرية القبول والرفض ، والأمانة بهذا الاعتبار هي حسن استعمال هذه الحرية إزاء الوحي الإلهي وما تتضمنه من تعاليم ، فالحرية إذا هي الأصل الذي يكون به المرء أميناً أو غير أمين ، وبها يتحدد موقف الإنسان من التكاليف والفرائض وهذا التفسير لا ينافي التفسير التي قال بها المفسرون ؛ لأنها أصل لها وهي فرع عنها .

ويتبين صواب هذه النظرة حين ننظر إلى كلمة « الطاعة » كتفسير للأمانة ، فإننا نراها بحاجة إلى أوصاف تحدها حتى تنطبق على الإنسان الذي حملها فقط <sup>(١)</sup> ، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ لأن الملائكة يتصفون بالطاعة ، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، بل والكائنات من أرض وجبال وساء مطيعة لله مع أن القرآن قال عنها : ﴿فَأَبْتِ أَنْ يَحْمِلَهَا﴾ .

وستجد أن الوصف الذي ينبغى وصف الطاعة به كي تكون خاصة بالإنسان سيعود بالأمر إلى « الحرية » حتماً ، فإن الوصف الضروري أن تقول : الطاعة عن اختيار ، أو الطاعة مع استطاعة عدمها أو مع القدرة على اختيار المعصية ، هذا من جانب ، أما الجانب الآخر : فهل يعقل إذا كانت الأمانة بمعنى الطاعة أن يقول القرآن عن حمل الطاعة : ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

فإذا قيل : لتكن الأمانة التكاليف والفرائض .

قلنا : إذن فقد اقتربنا إلى « الحرية » بصورة مباشرة فقد سبق أن بينا أن مسؤولية التكاليف والفرائض لا يتأتى تصورهما في الإسلام إلا من كائن منح حرية القبول أو الرفض .

(١) لا يغيب عن الأذهان أن الجن مخاطبون بالتكاليف لكنهم غير مقصودين في هذه الآية الكريمة ونحن يصدد الحديث عن المسؤولية الإنسانية .

على أننا نكرر أن الذي نفعله هو مجرد تحرير الأصل الذي تعود إليه هذه المعاني ، بمعنى أننا نسلم بأنها من لوازم هذا الأصل أو من جزئياته ، ونحن لا نقف منها موقف الرفض أو الخصومة بل هي الطريق الطبيعي الذي يؤدي إلى أصولها المركوزة في الحرية ومن هنا قلنا أننا ولا زلنا نقول : الحرية إذن هي الأصل الذي يتحدد به موقف الإنسان من التكاليف .

٢ - ويزيد من وضوح هذا الرأي النظر إلى كلمة « خليفة » وما تبعها من سؤال الملائكة وإجاباتهم . فطبيعة الخلافة أو الإنابة أن يتصرف الخليفة أو النائب بهذه الوكالة عن المنوب عنه ، وكأنه هو الذي يتصرف ، ومن المناسب هنا أن نقرر مسألة طالما آثارها العلماء ، وهي من أين للملائكة العلم بأن هذه « الخليفة » سيقع في شيء من الإفساد في الأرض وسفك الدماء ، وحين يتم تقرير هذه المسألة يتضح بصورة أكثر جلاء ارتباط الحرية الإنسانية باستخلاف الإنسان في الأرض .

فإذا عدنا إلى السؤال التقليدي عن المصدر الذي علم الملائكة عن طريقة الإفساد وسفك الدماء وجدنا أن مفتاح الإجابة على هذا السؤال يكمن في أمر بديهي عند الملائكة وإن ذهل عنه الكثيرون لشدة ما لابسهم من ظهور .

ذلك أن كائنًا غير الله مهما كان شأنه ، لا بد أن يعتريه شيء من الخطأ قليل أو كثير إذا أعطى حق التصرف بحرية لسبب بسيط جدا وهو : أن الكمال لله وحده وغير خافٍ أن الملائكة عباد مكرمون ، وهم خلق تخصصوا في تقديس الله سبحانه وتوحيده وتسيبحه وتنزيهه ، وهم بطبيعتهم مجبولون مفطورون على الطاعة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وعباد هذا شأنهم في معرفة كمال الخالق جلّ علاه يدركون على الفور والبداهة أن ما سوى الله عار عن الكمال المطلق<sup>(١)</sup> فإذا

(١) جاء في شرح الإمام البيهقوري على جوهرة التوحيد عند قول اللقاني : « فكل من كلف شرعا ... إلخ » ما يأتي : كل من كلف أي كل فرد من المكلفين من الإنس والجن دون الملائكة ولو قلنا =

ما أعطى قدرا من حرية الاتجاه والسلوك فستكون نتيجة هذا السلوك والاتجاه متجانسة مع صفاته الحادثة ، ولذلك ليست القضية هنا قضية غيب علمته الملائكة حتي يدور جدل عن الطريقة التي علموا بها هذا الغيب إذ يكفي أن يخبرهم المولى سبحانه بأنه جاعل في الأرض « خليفة » أى كائن له بواقع الاستخلاف نوع ما من الحرية ، يكفي ذلك لإحداث مقارنة فورية عند الملائكة بين الخليفة الحادث وما يتوقع من عجزه ونقصه وبين المستخلف القديم وما يعرفون من حكمته وكماله ، وتكون نتيجة هذه المقارنة لا محالة حكما بدهيا بوقوع خلل من هذا الخليفة يصل إلى حد الإفساد وسفك الدماء .

وإذن فالمشكلة التي سأل عنها الملائكة هي مشكلة الحرية التي ستمنح لهذا المخلوق الحادث بحكم مقتضيات استخلافه وإدراكهم الحق أن وراء هذه الحرية الحادثة صفات يصحبها نقص الحدوث وعجزه وأخطاره ، وهذا الذي عرف للملائكة بداهة عقيدة حق تفرق بين الخالق والمخلوق وبين الحادث والقديم ، وسياق الآيات يمضى حيثما مع هذا التحليل ، ولولا حذر الاستطراد لمضينا مع هذا السياق الواضح إلى آخر الشوط ، ولكن يكفي أن نقول : إن خطاب الله للملائكة في ختام الآية بعد سؤالهم لله : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ هذا الخطاب لا يشير من قريب أو بعيد إلى أن في سؤال الملائكة أية نقطة من نقط الضعف التي تعترى البشر ، والملائكة عصمهم الله من الخطأ ، فلا هم اعترضوا على الله سبحانه بهذا السؤال ، ولا هم نفسوا على آدم

= بتكليفهم إنها هو بالنسبة إلى غير معرفة الله تعالى فإنها جبلية لم فليس فيهم من يجهل صفات الله تعالى كما في الجن والإنس ولذلك قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨] ، فلم يطلق الأمر كما أطلقه في الملائكة ، « حاشية البيجورى على الجوهرة ص ١٨ طبعه دار إحياء الكتب العربية » .

« حاشا لله أن يفعلوا ذلك » غير أن الجانب السلبي في الحرية الحادثة - وهو أمر معلوم ومسلم بالضرورة - أخفى عليهم الجوانب الإيجابية في هذه الحرية الحادثة - وهو أمر لم يحطهم الله بعلمه - فما كان لهم إلا أن يسألوا الله سبحانه ، مجرد سؤال نقي بريء خالص من كل عيب ، فإن من المحال أن يتصف سؤال الملائكة إلا بما يليق بتقديسهم لله جل جلاله .

على هذا الأساس سألوا ربهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ، وعلى هذا الأساس أجيبوا : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وحين علموا قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .  
فأثنى الله على نفسه بما هو له أهل : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

وأيا ما كان الأمر فهذا الحوار بين الله وملائكته إنما كان لإظهار جوانب الخير في الإنسان ، والكشف له سلفا عن أوليائه وأعدائه ومن هنا كانت نتيجة هذا الحوار ذلك الموقف الذي يبين طاعة الملائكة لله سبحانه ونوع صلتهم بآدم وأبنائه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ ، وفي الجهة الأخرى يبين معصية إبليس وجنوده لله سبحانه ونوع صلتهم بآدم وأبنائه : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وآية الكهف رقم (٥٠) تبين موقف الملائكة الموالي للإنسان وتنتهى بشدة عن اتخاذ الشيطان وذريته أولياء ، وآيات غيرها في القرآن كثيرة تبين الموقفين : موقف الولاء من الملائكة ، وموقف العداء من الشياطين .

وهكذا بدأت محاولات إبليس في الكيد للإنسان : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا

الشَّيْطَانُ عَنَّا ﴿ [البقرة: ٣٥، ٣٦] ، وبعد جولة واسعة لإبليس مع أجيال من ذرية آدم من بنى إسرائيل عادت الوحدة الموضوعية لسورة البقرة كى تذكرنا من جديد بصحبة الملائكة وموالاتهم ، وتحذرننا من معاداتهم .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة: ٩٧، ٩٨] .

لقد ترك للإنسان أن يختار بين أحبابه وأوليائه من الملائكة وبين أعدائه من إبليس وأعدائه . وكانت هذه الحرية ، هى القضية الأساسية التى سأل عنها الملائكة المكرمون .

٣ - تبقى التفسيرات التى ذهب إليها المفسرون لآية الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ ، وللأحاديث النبوية الشريفة التى ذكرناها هناك .

وهل المراد بالإشهاد المأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، فطهرهم على التوحيد أم أخذ الميثاق ؟

وسواء أكان هذا أو ذلك ، فلا شك أن مزيدا من تأكيد الحرية يضيفه أى من التفسيرين للإنسان .

فمع احتمال كون « الإشهاد » فطرًا على التوحيد يبدو تأكيد الحرية الإنسانية فى رؤيتنا لكثرة كاثرة من الناس يمشون فى اتجاه مضاد لهذه الفطرة بحرية كاملة دون أن يعترض طريقهم ملك أو قدر ، وتلك لعمري حرية مغرقة فى التحدى والتمرد والعصيان ، وسيتحمل أصحابها تبعاتها ومسئوليتها . لكن تبقى مع ذلك دلالتها على قدرة الإنسان وحرية فى أن يولى وجهه الوجهة التى يريد ، حتى لو كانت

مخالفة لشريعة الله سبحانه .

أما لو كان « الإسهاد » هو أخذ العهد والميثاق فما أبلغ دلالاته على الحرية الإنسانية حينئذ ، فما يؤخذ عهد أو موثق إلا من قادر على أن يفى أو يجحد ، بهدف استتارته للوفاء بما أخذ عليه العهد أن يلتزمه ، وإلا فما الداعي لأخذ العهد والميثاق من مكره أو عاجز لا يملك طرفي موضوع الموثق فعلا وتركها ، وإذن فالإسهاد بمعنى أخذ الميثاق حجة تخدم قضية الحرية .

والخلاصة أن النصوص التي تضمنت هذه الأمور الثلاثة « الأمانة » و « الخلافة » و « الإسهاد » كما دلت على قضية المسؤولية منذ النشأة الأولى للإنسان .

فإنها من جانب آخر دلت على أن الحرية من أهم عناصر هذه المسؤولية المعتبرة في الإسلام ، والاعتراف لها بالقيم الإيجابية الفعالة المرضية .

وأى انتقاص لهذه الحرية الواعية ولو من داخل الإنسان نفسه يستوجب نقص هذه القيم في المسؤولية ، ويستلزم فقدانها لبعض عناصرها المرضية ، وإحلال غيرها مكانها حيث يتعرض أصحابها إلى أن يكونوا أسرى النفاق الاجتماعي أو السياسي بعد أن فقدوا شجاعة الحرية والصدق مع أنفسهم ، ويمكن أن نستشعر هذه الصورة حديث في القرآن الكريم عن بعض هذه الحالات : ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَنُحُورٍ﴾ [التوبة: ٥٤] .

هكذا يوفر الخالق جل وعلا عناصر الحرية الإنسانية ، يمنح الإنسان هذه الحرية بالفطرة محملا إياه هذه الأمانة مستخلفا له عن الله سبحانه .

وهو ثانيا يحمي هذه الحرية من عدوان الغير والنفس على حد سواء .

وهو ثالثا - كما سيأتي - يركب في الإنسان الدعائم التي تحفظ وتصون له حريته وقيمها الرفيعة ، وينمي بها شخصيته طوال مسيرته في هذه الحياة .



## الفصل الثاني

### كيف تنمو الإمكانيات والقدرات

#### وكيف تنمو بنموها التكليف والمسئوليات عقليا وعضويا ؟

#### الإمكانيات والقدرات :

إذا كانت يد الله سبحانه تولت تهيئة الإنسان منذ نشأته الأولى لتحمل أعظم المسئوليات وأشرفها ، فليس غريبا أن يزود الله عباده بالإمكانيات والقدرات التي تمكنهم من أداء واجبات هذه الأمانة الثقيلة وفي مقدمة هذه الواجبات إن لم تكن أخطرها واجبات الحفاظ على أهلية إدارة المال الذي هو عصب الحياة وفق قيم الإسلام .

وإنه لمن أعظم دلائل القدرة الإلهية ، تلك الصورة المدهشة التي ركب الله فيها خلقه من الناس ، وصدق الله العظيم : ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَّلَكَ ﴿٧٨﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٧٩﴾﴾ [الانفطار: ٦- ٨] ، ولعل الذي ينظر في شروط الوجوب<sup>(١)</sup> من أبواب الفقه الإسلامى يجد تلخيصا مركزا للإمكانيات والقدرات التي تصاحب مسئولية التكليف ، وأبرز هذه الشروط التي تكمن فيها

(١) شروط الوجوب تختلف من عبادة لأخرى وهي مثلا عند ابن جزى في الطهارة عشرة شروط : الإسلام والعقل والبلوغ وارتفاع دم الحيض ودخول الوقت وعدم النوم وعدم النسيان وعدم الإكراه ووجود الماء أو الصعيد والقدرة على الفعل . « كتاب القوانين لأبى القاسم الكلبي الغرناطى ص ١٦ طبعة الرباط ١٩٦٢ م » ، ومثل هذه الشروط في شرح أبى الحسن لرسالة ابن زيد القبروانى ، لكن العلامة العدوى قسم هذه الشروط إلى شروط وجوب فقط ، وشروط صحة فقط ، وشروط وجوب وصحة معا « حاشية العدوى على شرح أبى الحسن المذكور ص ٩٧ ، المطبعة الأزهرية » .

القدرات الضرورية للمسئولية هي البلوغ ، والعقل ، والاستطاعة ، وستناولها من زوايا المسئولية إن شاء الله .

**تكامـل إمـكانات المسـئولـيـة فـي الشـريـعـة بـيـن البـلوغ والعـقل والاسـتطاعـة :**

### ١ - البـلوغ :

الذي يراجع مسألة تحديد سن الرشد الذي يؤهل صاحبه للمسئولية يلاحظ بسهولة اختلاف العقول البشرية في تحديدها ، ومن هنا تختلف القوانين البشرية لكثير من الدول في اعتبار الراشد مسئولاً مستقلاً كاملة عند أى سن يصلها ، ومنشأ هذا الخلاف يعود أساساً إلى تحديد الوقت الذي يتم فيه نمو الإدراك العقلي والمعرفة للتأخر المترتبة على الأفعال .

ونحن إذا تركنا اختلافات القوانين التي صنعتها عقول البشر ، ويممنا وجهنا شطر الإسلام وجدنا نظاماً فريداً غاية في التكامل والإحكام ، فقد يراعى الإسلام أعمار الناشئة في أمور فرعية معينة ، ولكن مسألة الرشد المقترن بالتكليف أو بتحمل المسئولية لها قاعدة ليس لها نظير ، وهذه القاعدة تنصف بالتكامل والمرونة والثبات والدقة .

وتتلخص هذه القاعدة في تمام الأهلية للمسئولية عندما يصبح الفرد الإنساني قادراً على الإنجاب ، وعبر عنه الفقهاء تارة « بالبلوغ » ، وتارة أخرى بكلمة « التكليف أو الإدراك » فيقولون : أن يكون بالغاً - أو مكلفاً أو مدركاً - والإطلاق الأخير لما بين الأمرين من تلازم .

والذي يعيننا ذكره هنا هو أن نلفت النظر إلى تكامل هذه القاعدة ومرورتها ودقتها واطرادها وواقعيتها وتحقيقها للعدالة والرحمة .

أما التكامل فيتضح من ربط الإسلام النمو العقلي بالنمو الجسدي ، حيث حدد

البلوغ بالمعنى السالف الذكر بدءا للتكليف والمسئولية<sup>(١)</sup>.

وبلوغ الفتى سن الاحتلام وبلوغ الفتاة سن المحيض يشكل مرحلة نضوج عضوى واضح ، ويقترن هذا النضوج العضوى - فطرة وخلقة - بالقدرة الطبيعية فى العادة على تكوين أسرة ، ومعنى هذا : الدخول فى مرحلة المسئولية العملية مباشرة بمجرد بلوغ هذا السن ، إذن فوقت المسئولية فى الإسلام ، هو وقتها باخلقة والفطرة .

## ٢- العقل :

ومن وجهة أخرى - عن التكامل فى هذه القاعدة الإسلامية - فإنه إذا كان المقياس الإنسانى يقول : العقل السليم فى الجسم السليم ، فمعنى ذلك أيضا : أن نضوج الجسم فى هذه المرحلة غالبا يتبعه لا محالة نضوج فى العقل يؤهل صاحبه للمسئولية وتحمل تبعاتها .

واتصاف هذه القاعدة بالمرونة يتضح فى أن القاعدة تسير فى كل حالة على حدة ، وفق إمكاناتها الخاصة حيث يختلف سن النضوج من فتى إلى فتى ومن فتاة إلى فتاة ، فىأتى تطبيق القاعدة مرنا مع هذا التفاوت فى النضوج ، وبهذا كانت القاعدة الإسلامية بصيرة فى تنفيذها وتطبيقها ، وتنزهت عن نقيصة العمى القانونى الذى يتضح فى تحديد سن واحدة تشمل الجميع بلا استثناء ، رغم تفاوت سن الأهلية للمسئولية تبعا لتفاوت النضوج .

لكن هذه المرونة لم تمنع ثبات القاعدة الشرعية واطرادها بكل دقة ، من حيث أن للبلوغ علامات عضوية محددة معروفة ، تبدأ من تغير الصوت وانفلاق أرنية الأنف

(١) لأهمية الحقوق المالية ومسئوليتها ، يرى جمهور الفقهاء أن ولى الصبى الذى لم يبلغ يلزمه أداءها لتعلق الحق بالمال ذاته .

وإنبات الشعر إلى الاحتلام أو المحيض وقد توسع في شرحها الفقهاء .

أما واقعية القاعدة التي نتحدث عنها فيكفي أن الإسلام جعل منطلقها من واقع الفطرة في كل إنسان بذاته ، فلا يمضى عليه التكليف إلا إذا لمس بنفسه في نفسه بوادره وشواهده ، وليس فوق الواقع الملموس حجة مقنعة أو برهان مؤثر .

وعظمة التشريع هنا أنه يأتي بالمسؤولية مع تطور واقع الإنسان في وقت مناسب يحس فيه الناشيء برغبة شديدة في تحقيق ذاته وشخصه ، لدرجة يضيق فيها بتوجيه الكبار ضيقاً شديداً ، لأنه - كما يتصور - أصبح واحداً من هؤلاء الكبار ، فمن الطبيعي والحالة هذه أن يوجه هذا الإحساس الفطري توجيهاً نافعاً وسليماً بتحميله المسؤولية التي سيتلقاها سعيداً بها ؛ لأنها أعانته على أن يجد ذاته ونفسه .

انصاف هذه القاعدة بالعدالة والرحمة يأتي من زاويتين :

الأولى : وهي الخاصة بالعدالة ، أن نضوج العقل والجسم قد يتقدم عن السن التي حددها قانون وضعى آخر ، وحينئذ يكون تأخر المسؤولية إهمالاً بيناً يفوت بسببه تطبيق العدالة .

والثانية : وهي الخاصة بالرحمة أن نضوج العقل والجسم قد يتأخر عن السن التي حددتها القوانين الوضعية ، فتأتى قواعد المسؤولية في الإسلام رحمة بأصحاب هذه الحالات حيث إنهم لم يكونوا قد تهيئوا بعد كى يتحملوا مسؤولية كاملة عن أعمالهم .

وإذن فقد اتضح كيف تتصف القاعدة الإسلامية في تحديد بداية التكليف بالتكامل في الإمكانيات ، والمرونة في التطبيق ، والثبات في المبدأ ، والواقعية في المآخذ ، والعدل والرحمة في المنهاج .

٣ - الاستطاعة :

و يتم التكامل وتتأكد المرونة ويمضى الثبات وتستقر العدالة ، وتزداد الرحمة حين

تضيف الشريعة قدرة فوق البلوغ والعقل ، يجب أن تتوفر للمكلف حتى تتم مسألته تلکم هي : أن يكون البالغ العاقل مستطيعا .

والاستطاعة عامة في كل تكليف ، إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ آخر سورة البقرة .

لكن أنواعها كثيرة في كل تكليف فقد تكون بالصحة ، وقد تكون بالأمن ، وقد تكون بالمال وقد تكون بالعلم وقد تكون بالجاء ، وقد تكون بغير ذلك مما يناسب حال التكليف المنوط بالإنسان .

فلا يكفي في فروض العين للتكليف بالحج مثلا كون المسلم بالغاً عاقلاً إذ لا بد أن يكون إلى جوار ذلك مستطيعا ، والاستطاعة في هذا المقام صحة ومال وأمن .

وفي فروض الكفاية ، من واجب الجماعة أن توفر احتياجات المسلمين من التخصصات المختلفة وعليها أن لا تكلف بها إلا من تأنس فيه الاستطاعة لإجادتها وإتقانها ، وتدور الاستطاعة في هذا المقام على الخبرة والعلم في هذه المجالات .

والولاية العامة لسياسة أمور الدين والدنيا واجب عام على الجماعة ولكن لا يقوم به إلا من تتوفر فيه الاستطاعة لعبئها الثقيل ، وهي هنا حسن التدبير والعلم والتقوى والعدالة ..... وهلم جرا .

ونخلص من ذلك إجمالاً إلى تكامل قاعدة التكليف في الإسلام بهذه القدرات الرئيسة الثلاث : البلوغ ، والعقل ، والاستطاعة .

هذا التكامل ملحوظ في أدلة التكليف :

ويلاحظ امتداد هذا التكامل في النصوص الشرعية ، حيث نجد أدلة التكليف بالبلوغ تحمل في طياتها معنى تمام العقل وكمال الاستطاعة ، ثم نجد بعد ذلك أدلة التكليف العامة في الجزئيات المختلفة تحمل نفس المعنى .

أما الأدلة الدالة بشكل مباشر على المسؤولية بالبلوغ فمثالها النص التالي :

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون - وفي رواية وعن المعتوه حتى يعقل » .

وعنها من طريق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المبلى حتى يبرأ ، وعن الصبي حتى يعقل » <sup>(١)</sup> ، أما أدلة الجزئيات المختلفة العامة فمثلا لا يكاد يفرق المتأمل في النصين التاليين بين وظيفة العقل والعين لشدة تلاحمهما باعتبار الحواس والجوارح سبلا و منافذ لتزويد العقل بالحاتمات الأولية التي يصنع منها معارفه ومعلوماته .

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَنْظُرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

[الأعراف: ١٨٥]

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ .

[الغاشية: ١٧ - ٢١]

بل ولقد أصبحت كلمة « النظر » ، أو كلمة « التأمل » صالحة الدلالة على مجرد التفكير ، ولو كان التفكير صادرا من فقد حاسة النظر ، وصدق الله العظيم : ﴿ قَاتِلْهَا

(١) أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين والأربعة وقال الترمذى حديث حسن (ص ٢٣٨) ج ٢ الفتح الربانى .

قال ابن حجر فيها ذكره المناوى : ورواه أبو داود والنسائى وأحمد والدارقطنى والحاكم وابن حبان ، وابن خزيمة من طرق عن على ، وفيه قصة جرت له مع عمر ، وعلقها البخارى . والرواية التى ذكرها المناوى « وعن الصبي حتى يكبر » ثم قال : وفي رواية : « حتى يشب » ، وفي رواية : « حتى يبلغ » ، وفي رواية : « حتى يحتلم » ، (ص ٣٥ خ ٤ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى) .

لَا نَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنْ نَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿ [الحج: ٤٦] .

كما أن السمع والعقل جاءا في القرآن متلاحمين في مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : آية ١٠] .

ونفس المعنى يسهل إدراكه من أدلة الشرع على العقل وارتباطها بالنضج العضوى والجسدى ، واحتوائها للمعنى القدرة والطاقة والاستطاعة وكذلك أدلة الاستطاعة .

فالسمع ، والبصر ، واللسان ، والشفتان ، وغيرها من الوسائل العضوية كالأيدى والأرجل ونحوها من الحواس الإنسانية التي يتحقق « البلوغ » بتام نضوجها حالما يصبح المرء قادرا على الإنجاب . هذه الحواس وتلك الأعضاء توجد في عوالم الحيوان الكثيرة التنوع ، بل ووجودها في هذه العوالم يكون بصورة أكثر بأسا وأشددة قوة منها في الإنسان .

ومن هنا فهى حين تذكر في القرآن أو السنة منسوبة للإنسان تذكر متكاملة مع الإمكانيات المعنوية والعقلية ، بمعنى أن يكون الهدف الأسمى من وجودها مرعيا حين تذكر ، ولذلك فإن إهمال أهدافها من جانب الإنسان يلحقها فورا - في منطق الوحى - بحواس العجاوات الأخرى ، وعلى هذا الضوء يمكننا أن نستعرض بعض الأدلة التي تناولت بعض الحواس الإنسانية .

فعن القلوب والأعين والأذان قال تعالى : ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

[الأعراف: ١٧٩]

قال ابن كثير : يعنى لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية ، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس إلا فيما يقيتها .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

[النحل: ٧٨]

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا

أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وعن المشى بالأرجل والكلام باللسان قال تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ

صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾

[الإسراء: ٣٧]

وعن اللسان والشفتين قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

وَهَدَيْتُهُمُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠].

**تهيئة النفس للمسئولية من قبل البلوغ:**

تأتي أدلة التشريع فوق أرض معبدة مهياة للغرس الطيب والمسيرة الصالحة ، فمن الآداب الإسلامية مثلا ، أدب الاستئذان ، وقد جاءت سورة النور بتفصيلات عن هذا الأدب الكريم شملت أسلوب الاستئذان على الأجنبي ، وظهر في سياق هذه السورة الكريمة وهي تعالج أدب التطور الذي يعترى الطفل عند بلوغه الحلم ، فقد طلب من ذوى الأطفال أولا أن يعلموهم هذا الخلق وكيفية تطبيقه والأوقات التي يطبق فيها ، ثم عند وصولهم مرحلة البلوغ عوملوا معاملة الرجال المكلفين .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِذْ بِنُكْمِ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ [النور: ٥٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ [النور: ٥٩].

قال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: الغلام يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال.

وهكذا قال سعيد بن جبير عن ابن كثير في تفسير سورة النور بتصرف يسير وقوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه وقوم تقدم حكمهم في آيات الاستئذان العامة في نفس سورة النور.

وقد أوردنا في إعداد الأبناء وتربيتهم كى يعدوا مبكرين للمسئولية التي تنتظرهم أحاديث مطالبتهم بالصلاة وهو أبناء سبع وتأديبهم عليها وهم أبناء عشر، ونحوها في غير هذا المكان من الكتاب؛ ولذا نكتفى بهذا القدر، حتى نتقل إلى موقف السنة من تكامل التكليف والمسئولية.

ودلالة السنة المطهرة على هذا التكامل تبدو في هذه المجموعة من أحاديث النبي

ﷺ:

ففى الألسن والأيدى والفروج وهى فى مقدمة الحواس التى تعرض صاحبها للمسئولية.

روى البخارى فى كتاب الرقاق أن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لى ما بين لحيه وما بين رجله أضمن له الجنة» (١).

(١) رواه البخارى فى الرقاق.

وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » <sup>(١)</sup> .

وروى البخارى عن أبى موسى رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله ، أى الإسلام أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » <sup>(٢)</sup> .

### نموذج اجتماعى تنموى :

وقبل أن نتقل إلى عموم الجوارح ، سنقف وقفة قصيرة مع مسؤولية اللسان فى السنة لنرى نموذجاً فذا من التكامل فى المنهاج والتطبيق مع مسؤوليات جارحة واحدة من الجوارح كجزئية واحدة فى هيكل المنهاج الكبير للمسئولية الإنسانية ، يودى تطبيقه إلى تنمية اجتماعية إيجابية فى تقوية العلاقات والثقة وطبع الحياة بطابع الاستقرار والإنتاج .

ففى مسؤولية اللسان روى البخارى عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : « إنما أنا بشر ، وأنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها » <sup>(٣)</sup> .

وهذا يودى إلى تنمية محاسبة النفس ورقابة الله فى الباطن حيث ينعكس ذلك على سائر السلوك والمشاعر .

وفى مسؤوليته كى يصمت ولا يتكلم أيضا روى البخارى عن ابن عمر قال : دخلت على حفصة - أى أخته أم المؤمنين رضي الله عنها - ونسواتها تنظف - أى قرون رأسها تفتطو الماء - قلت : قد كان من أمر الناس ما ترين ، فلم يجعل لى من الأمر شيء -

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيذان .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

يقصد حادثة التحكيم بصفين - قالت : إلحق ، فإنهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة ، فلم تدعه حتى ذهب فلما تفرق الناس خطب معاوية ، قال : من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر ، فليطلع لنا قرنه ، فلنحن أحق به منه ومن أبيه . قال حبيب بن مسلمة : فهلا أجبته ؟

قال عبد الله : فحللت جبوتي - يقصد أنه تهيأ للكلام بحل ثوبه أو يديه عن ركبتيه - وهممت أن أقول : أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام . فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع ، وتسفك الدم ، ويحمل عنى غير ذلك ، فذكرت ما أعد الله في الجنان .

قال حبيب : « حفظت وعصمت »<sup>(١)</sup> .

ففي هذا الحديث تبدو ظاهرة المسئولية عن الكلمة في حبس اللسان عن النطق بكلمة حق ، وفي الحديث السابق حبسه عما يروج لغير الحق في موقف قضائي ، وكلا الموقفين مبتغى بهما وجه الله عز وجل ويؤديان إلى توفير الطمأنينة والأمان على المستوى الفردي والاجتماعي .

وتبدو المسئولية عن كلمة اللسان في أشد صورة من الحسم لحبس اللسان عنها فيما يمس الاعتقاد أو العلاقة الزوجية .

روى البخارى عن ثابت بن الضحاك - وكان من أصحاب الشجرة - أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال ، وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك ، ومن قتل نفسه بشئ في الدنيا عذب به يوم القيامة ، ومن لعن مؤمنا فهو كقتله ، ومن قذف مؤمنا فهو كقتله »<sup>(٢)</sup> .

وتتفرع عن هذا المبدأ - مبدأ الكف عن الأذى للنفس أو للغير بالكلام - عدة

(١) البخارى في كتاب المغازى .

(٢) البخارى كتاب الأدب .

آداب وواجبات أساسية في الإسلام . فكف اللسان عن قول الزور من أوجب ما ينبغي على المسلم أن يأخذه بنفسه ، وفي هذا روى البخارى عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال . قال رسول الله ﷺ : « أكبر الكبائر الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وشهادة الزور « ثلاثا » أو قول الزور » ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت (١) .

وكف اللسان عن الغيبة والنميمة لا يقل خطورة في الوجوب عن سابقه ، فهما من الكبائر التي تدمر المجتمع ، فقد روى البخارى عن همام قال : كنا مع حذيفة فقيل له : أن رجلا يرفع الحديث إلى عثمان ، فقال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات » (٢) .

عثمان هو : ابن عفان أمير المؤمنين كما في الفتح .

القتات هو : النمام .

وأخرج أبو يعلى عن البراء قال : خطبنا رسول الله ﷺ وسم حتى أسمع العواتق في بيوتها ، أو في خدورها فقال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه جوف بيته » (٣) .

عن أنس ابن مالك ؓ قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضا في الأسفار ، وكان مع أبى بكر وعمر ؓ رجل يخدمهما ، فناما فاستيقظا ولم يهتئ لهما طعاما فقالا : إن هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا : إيت رسول الله ﷺ فقل له : إن أبا بكر وعمر ؓ يقرئانك السلام ويستأدمانك . فقال ﷺ : « أنها قد أتتدما » ، فجاءا فقالا : يارسول

(١) البخارى كتاب أستتابه المرتدين .

(٢) متفق عليه .

(٣) قال الهيثمى ورجاله قتات ، وأخرج البيهقى عن البراء نحوه كما في الكترج ٨ ص ٢٠٠ .

الله بأى شئ اتدمنا فقال ﷺ: « بلحم أخيكما ، والذي نفسى بيده ، إنى لأرى لحمه بين ثناياكما » ، فقالا ﷺ: استغفر لنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ: « مره فليستغفر لكما »<sup>(١)</sup> .

كذلك تتضح مسئولية كف اللسان فى مقام الفتوى عند عدم العلم بجوابها .

روى البخارى عن عروة قال : حج علينا عبد الله بن عمرو وسمعته يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم ، فيضلون ويضلون » ، فحدثت عائشة زوج النبى ﷺ ، ثم إن عبد الله بن عمرو حج بعده ، فقالت : يابن أختى : أنطلق إلى عبد الله فاستثبت لى منه الذى حدثنى عنه ، فجيته فسألته فحدثنى به كنهو ما حدثنى ، فأيتت عائشة فأخبرتها فعجبت فقالت : والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو<sup>(٢)</sup> .

ومن هذه المسئوليات الخاصة بجارحة اللسان ضرورة الكف عن التناجى إذا أثر على مشاعر الآخرين .

روى الإمام البخارى عن مالك عن نافع عن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث »<sup>(٣)</sup> ، ومنها مسئولية الكف عن المديح الضار .

روى البخارى عن أبى موسى قال : سمع النبى ﷺ رجلا يثنى على رجل ويظريه فى المدحة فقال : « أهلكم أو قطعتم ظهر الرجل »<sup>(٤)</sup> .

(١) رواه الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المختار ، من طريق حسان بن هلال عن حماد بن سلمه عن ثابت .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) البخارى كتاب الأدب .

وروى البخارى عن أبى بكره أن رجلا ذكر عن النبى ﷺ ، فأثنى عليه رجلا خيراً ، فقال النبى ﷺ : « ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مرارا - إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل : أحسب كذا وكذا ، إن كان يرى أنه كذلك وحسيه الله ، ولا يركى على الله أحدًا » (١) .

وهذا الأدب يؤدى إلى حماية التنمية فى انطلاقها من داء الغرور الذى يقصم الظهور ، ظهر القائم بالعمل ، وظهر العمل نفسه .

ومنها مسئولية عدم التكلف فى استحداث أسئلة عما سكت عنه الشارع .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم كثيرا » ، قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين ، فقال رجل : من أبى ؟ قال : « فلان » ونزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ شَيْءٍ إِن بُدِّلَكُم مِّنْهُ ﴾

[المائدة: ١٠١]

يقول ابن كثير وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم » (٢) .

وفى الحديث الصحيح أيضاً : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها » .

أجل : فالأمة التى تنمى نفسها وأفرادها بالعمل الجاد ، ليس لديها الوقت لمثل هذا اللغو أو الجدل فى غير ما تدعو إليه الحاجة .

(١) البخارى كتاب الأدب .

(٢) تفسير ابن كثير .

ومن مسئوليات اللسان الكف عن السباب .

ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « سباب المسلم فسوق وقتله كفر » <sup>(١)</sup> .

ويلاحظ أن هذه المسئوليات جميعها يطلب فيها كف اللسان عن النطق بهذه المآثم ، بيد أن هناك مسئوليات يطلب فيها أن يضاعف اللسان من وظيفته الإيجابية بالكلام والنطق .

في مقدمة هذه المسئوليات تبليغ الدعوة :

فمن حديث رواه الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » <sup>(٢)</sup> .

وروى الإمام البخارى عن أبى بكره ، رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال <sup>(٣)</sup> : « أتدرون أى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى ، قال : « أى شهر هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى ، قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : « أليست البلدة ؟ » قلنا : بلى قال : « فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(١) تفسير ابن كثير (سورة البقرة) .

(٢) ص ١٦٤ ج ١ الفتح الربانى شرح مسند أحمد .

(٣) رواه أحمد والبخارى .

قال الإمام الشوكاني : « قوله اللهم اشهد » إنها قال ذلك لأنه كان فرضا عليه أن يبلغ ، فأشهد الله تعالى على أداء ما أوجبه عليه .

قوله : « قرب مبلغ » بفتح اللام : أى رب شخص بلغه كلامى فكان أحفظ له وأفهم لعناه من الذى نقله له .

قال المهلب : فيه أنه يأتى فى آخر الزمان من يكون له من الفهم والعلم ما ليس لمن تقدمه ، إلا أن ذلك يكون فى الأقل ؛ لأن رب موضوعه للتقليل <sup>(١)</sup> .

ومن هذا النوع من المسئوليات مسئولية النصيحة فإنها تشمل اللسان كما تشمل غيره . أخرج ابن عساکر عن أبى الدرداء رضي الله عنه : « لا إسلام إلا بطاعة ولا خير إلا فى جماعة ، والنصح لله وللخليفة وللمؤمنين عامة » <sup>(٢)</sup> .

ومن المسئوليات الإيجابية فى وظيفة اللسان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

روى الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيذان » <sup>(٣)</sup> .

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ، ومنها إفشاء الكلام الطيب ونشر السلام <sup>(٤)</sup> .

روى البخارى عن عدى بن حاتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا النار ولو بشق

(١) نيل الأوطار ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ ج ٣ .

(٢) كذا فى الكنز ج ٨ ص ٢٢٧ \_ كما أورده الكاندهلوى فى الجزء الثالث من كتاب حياة الصحابة ص ٥٧٢ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أحمد .

ثمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة « (١) .

ومنها المعاملة بالمثل في الهجوم على أعداء الدعوى ، وأهل الشرك والباطل .

روى البخارى عن البراء رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان : « أهجهم أو هاجهم وجبريل معك » (٢) .

ومنها غير ذلك من المسئوليات بالصمت أو بالكلام مما يطول ذكره ، بيد أن ما ذكر كافي في إظهار التكامل في المنهاج من حيث موقف السنة من مسئوليات جارحة واحدة فضلاً عن جميع الجوارح ، من حيث حجم تأثيرها الطيب في تنمية الفرد والجماعة إذا هي تضافرت وتأزرت في الوفاء بمسئولياتها والتزاماتها .

ونختتم هذه الطائفة من الأحاديث النبوية التي تبين مسئوليات الأعضاء والجوارح بحديث واحد شامل عام لكل الحواس والأعضاء والمفاصل التي يحتويها البدن .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة ، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها ، أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة » (٣) .

وهكذا لم يدع هذا الحديث زاوية من زوايا تنمية المجتمع إلا وطالب كل عضو من أعضاء الإنسان أن يسهم فيها طاعة لله ورسوله .

(١) رواه البخارى .

(٢) متفق عليه .

(٣) البخارى « والسلامى » الجارحة والعضو السلامى : عظام الأصابع في اليد والقدم ، فيقدر ما في الإنسان من جوارح ، ويقدر ما في المجتمع والحياة من واجبات يطلب من المسلم أن يشارك بالعمل الذى يعود بالخير عليه وعلى مجتمعه .

أدلة البلوغ في السنة كحد تشريعي فاصل :

وتأتى بعد ذلك أدلة البلوغ المباشرة في السنة المطهرة :

روى البخارى عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : جاءت أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت الماء » فغطت أم سلمة تعنى وجهها ، وقالت : يا رسول الله وتحتلم المرأة ؟ قال : « نعم تربت يمينك ، فبم يشبهها ولدها ؟ » <sup>(١)</sup> .

وروى أبو داود عن خالد بن دريك عن عائشة ، أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رفاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذا » ، وأشار إلى وجهه وكفيه ، قال أبو داود : هذا مرسل ، خالد بن دريك لم يسمع من عائشة .

وعن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » .

وروى البخارى قال : قال على لعمر : « أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يدرك ، وعن النائم حتى يستيقظ » <sup>(٢)</sup> .

ومن هذه الجولة المتعجلة في رحاب السنة المطهرة نخلص بأن موقف السنة يتوافق مع موقف القرآن الكريم في مسئولية الحواس والأعضاء التى يتحقق البلوغ بنسوجها ، ويتضح هذا التوافق جلياً في توزيع المسئولية أو التكاليف على جميع الحواس والأعضاء في كل من القرآن والسنة في تناسق تام وتلاحم رائع ، هذا بالإضافة إلى التماسك والتكامل بين مسئولية الجسم ومسئولية العقل .

(١) رواه البخارى .

(٢) البخارى كتاب المحاربين

فقد رأينا ظاهرة التلاحم بين هذه الإمكانيات العضوية وبين أهدافها العقلية المعنوية ، وكان النموذج المتكامل الذى أضفنا دراسته عن مسؤوليات اللسان وكيف تؤدي إلى منهاج مفصل سواء بالصمت أو بالنطق في أرفع وأرقى درجات المسؤولية مثالا توضيحيا لما نقول .

هذا وقد تناولت الأحاديث النبوية الحواس بأسلوب أخاذ ومقنع تتجلى فيه ظاهرة الإقناع والتأثير إلى أبعد حدودها عقلا وعاطفة ، فمن بيان لعلة الحكم إلى رواية صادقة للاستفادة بتجربة السابقين ، إلى ترغيب وتحذير ، مما لا يخفى عند النظر في نصوص الأحاديث .

كذلك فإن الدور التشريعى للسنة كحد فاصل في التكاليف من جهة يبدو بوضوح في الأدلة النبوية المباشرة في البلوغ ، ومن جهة أخرى يقال هنا عن واقعية التشريع وتوافقه مع المصلحة ما قيل عن الأدلة القرآنية هناك ، في ضوء قواعد العدل والرحمة والمرونة والتحديد والشمول .

ولا حاجة بنا للقول بأن هذه النصوص التى قدمناها من القرآن والسنة ، إنما كانت تعالج مباشرة الإمكانيات والقدرات البدنية والمادية بصورة مباشرة ، أى أن إيرادها كان في إطار القدرات والإمكانيات العضوية التى عبر الاصطلاح الشرعى عن مجموعها بالبلوغ أو الإدراك ومن هنا أفرد الفقهاء شرط الإمكانيات العقلية بصورة مستقلة تحت عنوان « العقل » كما أفردوا لنضوج القدرات الجسدية شرطا مستقلا تحت عنوان « البلوغ » ، الذى فرغنا تورا من عرض أدلته في القرآن والسنة ، أما ما ورد في خلالها متعلقاً بالأهداف العقلية والمسؤوليات الشرعية وغاياتها ، وعلاقة ذلك كله بشرط الاستطاعة ، فإنما كان ذلك كله من باب إبراز التلاحم والتكامل وتمام التناسق في قواعد المسؤولية التى أوردها نصوص القرآن والسنة ، والتى كان من أهداف هذه الدراسة إبرازها وتوضيحها .

من هنا فلا زال وراءنا أن نعرض الحالة الواقعية لارتباط حجم المسؤولية بمستوى القدرة العقلية والبدنية .

ثم نعرض هذا الواقع من خلال الأدلة العامة والشاملة لارتباط هذه القدرات في القرآن والسنة .

ارتباط حجم المسؤولية بمستوى القدرة العقلية والبدنية من الناحية الواقعية : يرتبط حجم المسؤولية ارتباطاً وثيقاً بمستوى القدرة العقلية والبدنية وجوداً وعدمياً .

فتتوقف المسألة كلياً بفقدان العقل كلياً ، بينما تتوقف بصفة مؤقتة عند وجود القيود أو العوائق المؤقتة التي تمنع العدل من أداء وظيفته . فالفقد الكلي للعقل كالجنون . والعوائق المؤقتة كالنوم والإغماء والنسيان .

ومن هنا نص فقهاء الإسلام على اشتراط العقل للوجوب والتكليف ولا بد من الإشارة هنا إلى التكامل في هذه القاعدة .

### ١- تكامل القاعدة :

القاعدة المقصودة هنا في ربط حجم المسؤولية بالقدرة العقلية ، وقد تتداخل القوى العقلية في بعض المواقف مع القوى الجسدية ، وقد تنفصل .

ولما كان العقل هو القائد المدبر لكل هذه القوى الجسدية وحركاتها فقد اخترنا عرض تكامل القاعدة في الحالات المختلفة التي تلتقي فيها القوى العقلية والجسدية أو تنفصل ويتبلور تلاحقهما مع الاستطاعة .

فالنوم والإغماء مثلاً يعطلان في وقت واحد القدرتين العقلية والجسدية معاً ، وبالتالي يفقد الإنسان استطاعته .

والنسيان يعطل عمل العقل فيما نسيه الإنسان ، بينما تظل قواه الجسدية صالحة

للعمل . ويسقط الأمر المنسى من متناول الإرادة فتتعطل نسبياً الاستطاعة في هذه الجزئية المنسية .

أما الإكراه فتبقى فيه القدرة العقلية يقظة مدركة ، بينما تجبر القدرة الجسدية على العمل تركاً أو فعلاً وفق ما يريد المكره ، وتعطل عن العمل الحر وفق إرادة صاحبها .

كما أن هناك حالة أخرى وهى حالة المرض العضوى الذى يعطل القوى الجسدية فحسب ، بينما تظل القوى العقلية في سلامة وعافية ، ولكن المرء لا يكون مستطيعاً .

بل وهناك العوارض الطارئة التى قد تؤثر على القوى الجسدية والنفسية كالسفر والمطر ، وهذه الحالات يراعى الإسلام فيها نوعاً من التخفيف بالنسبة لبعض التكاليف والواجبات .

ويطيب لنا أن نكرر أننا أدمجنا هذه الحالات مع الاستطاعة لأسباب أربعة :

أولاً : لأن الأدلة الرئيسية في القرآن والسنة كانت عامة لهذه الأحوال كلها .

ثانياً : لإبراز تكامل قاعدة ارتباط المسئولية بالقدرات جميعها على قدم المساواة .

ثالثاً : لأن الحالات الثلاث الأخيرة مظنة التأثير بالإرهاق والإنهاك على جميع قوى الإنسان العضوية والعقلية ، وهذا نوع من تجاوب التكامل في الدين والفطرة .

رابعاً : ولأن كل ذلك متداخل متلاحم مع « الاستطاعة » التى ستحتويها نفس الأدلة ، باعتبار الاستطاعة محصلة طبيعية للقدرات المختلفة عقلية وجسدية وغيرهما .

وهكذا نتهى بنفس الاتجاه الذى بدأنا به الموضوع كله آنفاً عن التلاحم والتكامل بين شروط العقل والبلوغ والاستطاعة .

## ٢- الأدلة العامة الشاملة :

قال تعالى : ﴿ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ تَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

وعن محمد بن المنكدر أنه سمع أميمة بنت رقيقة تقول : بايعت رسول الله ﷺ في نسوة فقال لنا : « فيما أستطعتن وأطقتن » .

قلت : الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا . فقلت : يارسول الله : بايعنا ، قال سفيان : تعنى صافحنا ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة » <sup>(١)</sup> .

وفي المجنون والصبي والنائم روى البخارى أن على بن أبى طالب قال : « ألم تعلم أن القلم رفع عن ثلاث : عن المجنون حين يفيق ، وعن الصبي حتى يدرك ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وقال : وكل الطلاق جائز ، إلا طلاق المعتوه » <sup>(٢)</sup> .

وفي معافاة الأمة مما لا تستطيعه بسبب الخطأ أو النسيان أو الإكراه روى ابن ماجه في سنته وابن حبان في صحيحه من حديث أبى عمرو والأوزاعى عن عطاء قال ابن ماجه في روايته عن ابن عباس وقال الطبرانى وابن حبان عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وقد روى من طريق آخر وأعله أحمد وأبو حاتم والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى قال حدثنا مسلم بن ابراهيم قال حدثنا أبو بكر الهذلى عن شهر عن أم الدرداء عن النبى ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتى عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه » ، قال أبو بكر : فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما

(١) قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وأخرجه النسائى وغيره ص ٢٢٠ ج ٥ تحفة الأحوذى .

(٢) البخارى ، باب الطلاق .

تقرأ بذلك قرآنا .

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ <sup>(١)</sup> .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكل أو شرب ناسيا فلا يفطر ، فإنما هو رزق رزقه الله » <sup>(٢)</sup> .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه » <sup>(٣)</sup> .

ورفع الشارع الحكيم مسئولية الطلاق عن المكره ، وقد ترجم البخارى لأحد أبواب صحيحة في الطلاق بالإكراه فقال : « باب إذا قال لامرأته وهو مكره هذه أختى فلا شئ عليه » .

ثم ترجم للباب الذى يليه فقال : « باب الطلاق فى الإغلاق والكراهة والسكران والمجنون وأمرهما والغلط والنسيان فى الطلاق والشرك وغيره » .

لقول النبى ﷺ : « الأعمال بالنيات ، ولكل أمرى ما نوى » ، وتلا الشعبى :  
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ، وما لا يجوز من إقرار الموسوس .  
وقال رسول الله ﷺ الذى أقر على نفسه : « أبك جنون ؟ » .

وقال على : بقر حمزة خواصر شارفى ، فنطق النبى ﷺ يلوم حمزة ، فإذا حمزة قد ثمل محمرا عيناه ، ثم قال حمزة : هل أنتم إلا عبيد لأبى ؟ فعرف النبى ﷺ أنه قد ثمل ، فخرج وخرجنا معه <sup>(٤)</sup> .

(١) ابن كثير ج ١ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) قال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه البخارى ومسلم ج ٣ ، ص ٤١١ الأحمدي .

(٣) متفق عليه .

(٤) هذه الواقعة قبل تحريم الخمر وينسحب حكمها على السكران بحلال كالتعبير المؤلف لجمهور الفقهاء .

وقال عثمان : ليس لمجنون ولا لسكران طلاق .

وقال ابن عباس : طلاق السكران والمستكره ليس بجائز .

وقال عقبه بن عامر : لا يجوز طلاق الموسوس <sup>(١)</sup> .

وفي رفع المسئولية عن حديث النفس حيث يتعذر أو يعسر كف الخاطر عن التردد روى البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم » .

قال قتادة : إذا طلق في نفسه فليس بشئ <sup>(٢)</sup> .

وفي السفر والمرض نسوق هذا النموذج لاشتماله على نظرات موضوعية للصحابة والفقهاء في النقول التي تتعلق بالتيشير والتخفيف للظروف التي تعترى الاستطاعة .

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة: ١٨٤] .

معناه : ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه ، أو يؤذيه ، أو كان على سفر ، أى في حالة السفر فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام ، ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، أى إنها رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم .

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية :

إحداها : أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم

(١) البخارى .

(٢) البخارى .

سافر في أثناءه فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر ، وهذا القول غريب نقله أبو محمد ابن حزم في كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وفيا حكاة عنهم نظر والله أعلم فإنه قد ثبتت السنة عن الرسول ﷺ : أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ، ثم أفطر وأمر الناس بالفطر<sup>(١)</sup> .

الثانية : ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله : ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ، والصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم ؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان قال :

فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم ، الصيام بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة .

الثالثة : قالت طائفة منهم الشافعى :

الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم .

وقالت طائفة : بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر فقال : « من أفطر فحسن ومن صام فلا جناح عليه » .

وقال في حديث آخر : « عليكم برخصة الله التي رخص لكم » .

وقالت طائفة : هما سواء لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال : يا

(١) متفق عليه .

رسول الله إننى كثير الصيام أفصوم فى السفر؟ فقال: « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر »<sup>(١)</sup>.

وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلا قد ظلل عليه فقال: « ما هذا؟ » قالوا صائم فقال: « ليس من البر الصيام فى السفر »<sup>(٢)</sup>.

فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه لما جاء فى مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما: « ومن لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة ».

الرابعة: القضاء: هل يجب متابعا أو يجوز فيه التفريق، فيه قولان:

أحدهما: أنه يجب التتابع؛ لأن القضاء يحكى الأداء.

والثانى: لا يجب التتابع بل إن شاء تابع وإن شاء فرق وهذا قول جمهور السلف والخلف لضرورة أدائه فى الشهر فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ولهذا قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَنْكَارٍ أُخْرٍ﴾ أ. هـ<sup>(٣)</sup>.

نقول: ويتضح من استعراض هذا النموذج أن النقول الشرعية كلها تستوعب الحالات المختلفة التى تعترى قدرات الإنسان وكفاءة إمكاناته، وتبعاً لذلك فقد يكون الصيام هو الأولى والأحب، وقد يكون الإفطار هو الأولى عند وجود مقتضيه، فالنصوص جميعها لها مواقفها التى تعمل فيها، وتظهر حاجة الناس إليها وفق مستويات قدراتهم واستطاعتهم.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٦ - ٢١٧.

والخلاصة : أن البلوغ والعقل والاستطاعة في سائر التكاليف تشكل معا حلقة محكمة في عناصر المسؤولية كما رأينا في نصوص القرآن والسنة وتطبيقاتها ، وبالتالي تجعل خطة التنمية في جميع المجالات مرتبطة بقدرات الناس وإمكاناتهم . وقدرات الناس وإمكاناتهم إذا تكاتفت وتساندت واعتصمت بجبل الله حققت ما يشبه المعجزات .

ومعنى ذلك أنه مهما كانت خطة التنمية طموحة فهي في متناول المسلم إذا التزم منهاج الإسلام العظيم .

\*\*\*\*\*